الباب الثالث

فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية وصدر الإسلام

وبيان ما أُحْدث فيه من التوسيع والزيادة فى زمن خلافة سيّدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وزمن خلافة سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، وزمن سيّدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، وهدم عبد الله بن الزبير بناء قريش للكعبة وإعادتها على قواعد إبراهيم عليه السلام ثم هدم الحجّاج جانب الحِجْر والميزاب من الكعبة وإعادتها على ما بَنَتْه قريش فى زمن النبىّ ﷺ قبل مبعثه الشريف.

اعلم أن الكعبة الشريفة لما بناها سيّدنا إبراهيم عليه السلام لم يكن حولها دار ولا جدار واستمرّت كذلك فى أيام العمالقة وجُرْهم وخُزاعة لا يستجرئ أحدٌ أن يبنى بمكة داراً ولا جداراً احترامًا للكعبة الشريفة، فلما آل أمر البيت إلى قُصَىّ بن كلاب واستولى على مفتاح الكعبة كما تقدّم بيانُه جمع قُصَىٌّ قومه وأمرهم أن يبنوا بمكة حول الكعبة الشريفة بيوتًا من جهاتها الأربع وكانوا يُعظمون الكعبة أن يبنوا حولها بيوتًا أو يدخلوا إلى مكة على جنابة وكانوا يقيمون بها نهارًا فإذا أَمْسَوْا خرجوا إلى الحلّ، فقال لهم قُصَىٌّ: إن سكنتم حول البيت هابَتْكم الناس ولم تستحلّ قتالكم والهجوم عليكم، وبدأ هو وبنى دار النَّدْوَة من الجانب الشامى كما تقدّم بيانه، ويقال: إنها محلّ مقام الحنفيّة الذى يُصَلّى فيه الإمام الحنفىُّ الصلوات الخمس، وقسم قُصَىٌّ باقى الجهات بين قبائل قريش فبنوا دُورَهم وشرّعوا أبوابها إلى نحو الكعبة الشريفة وتركوا للطائفين مقدار المطاف بحيث يقال إنه القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشية المطاف الشريف الآن، وجعلوا بين كلّ دارَيْن

من دورهم مسلكًا شارعًا فيه باب يُسْلَكُ منه إلى بيت الله تعالى، ثم كثرت البيوت واتصلت إلى زمن النبى ﷺ فوُلِدَ عليه أفضل الصلاة والسلام على أشهر الأقوال بشعب بنى هاشم بقرب المحلّ المسمّى الآن بشعب علىٍّ وكان يسكن دار سيّدة النساء أُمّ المؤمنين خَدِيجَةَ الكُبْرى رضوان الله عليها.

ثم لمّا ظهر الإسلام وكثر المسلمون استمرّ الحال على هذا الوضع فى زمن النبى ﷺ وزمان خليفته سيّدنا أبى بكر الصدّيق، ولمّا زاد ظهور الإسلام وتكاثر المسلمون فى زمن أمير المؤمنين عمر الفاروق رضى الله عنه فرأى أن يزيد المسجد الحرام.

فأوّل زيادة زيدت فى المسجد الحرام زيادته رضى الله عنه، فَنَبْدَأ بذكرها، فنقول: روينا بالسند المتّصل المذكور سابقًا فى المقدّمة عن الإمام أبى الوليد الأزرقى، قال: أخبرنى جدّى، قال: أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جُرَيْج، قال: كان المسجد الحرام ليس عليه جدران تُحيط به وإنما كانت دور قريش محدقة به من كلّ جانب، غير أن بين الدور أبوابًا يدخل منها الناس إلى المسجد الحرام، فلمّا كان زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وضاق المسجد بالناس ولَزِمَ توسيعه، اشترى دُورًا حول المسجد وهدمها وأدخلها فى المسجد، وقد بقيت دور احتيج إلى إدخالها أيضًا فى المسجد فأبى أصحابها من بَيْعها، فقال لهم عمر رضى الله عنه: أنتم نزلتم بفناء الكعبة وبنيتم به دورًا ولا تملكون فناء الكعبة، وما نزلت الكعبة فى سُوحكم وفنائكم[١].

فقُوِّمَت الدور ووُضِعَ ثمنها فى جوف الكعبة ثم هُدِمَت وأُدْخلت فى المسجد، ثم طلب أصحابُها الثمن فسُلِّمَ إليهم ذلك، وأمر ببناء جدار قصير أحاط بالمسجد وجعل فيه أبوابًا كما كانت بين الدور قبل أن تُهْدَم جعلها فى محاذاة الأبواب السابقة.

فلمّا كثر الناس فى زمان أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، فأمر بتوسيع

(١) الأزرقى ٢/ ٦٨.

المسجد واشترى دورًا حول المسجد هدمها وأدخلها فى المسجد وأَبَى جماعة عن بيع دورهم ففعل كما فعل عمر رضى الله عنه وهدم دورهم وأدخلها فى المسجد، فضجّ أصحاب الدور وصاحوا فدَعَاهم وقال لهم: إنّما جرّأكم علىَّ حِلْمى عليكم[1] ألم يفعل بكم ذلك عمر رضى الله عنه فلا ضجّ به أحدٌ ولا صاح عليه، وقد احتذَيْتُ حَذْوَه فضجرتم منّى وصِحْتُم علىَّ، ثم أمر بهم إلى الحبس فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أُسَيْد فتركهم[2].

ولم يذكر الأزرقى رحمه الله تعالى متى كانت زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولا زيادة أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وذكر ابن جرير الطبرى وابن الأثير الجَزرى فى تاريخهما أن زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت فى سنة سبع عشرة من الهجرة بتقديم السين، وأن زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه كانت فى سنة ست وعشرين من الهجرة.

أقول: زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعمارته للمسجد كانت عقب السّيل العظيم فى سنة سبع عشرة من الهجرة وتخريبه مَعَالم الحرم الشريف، ويقال لذلك السيل: سَيْل أُمّ نَهْشَل.

قال شيخ شيوخنا حافظ عصره الشيخ عمر بن الحافظ التقى محمد بن فَهْد الهاشمى العلوى رحمه الله تعالى فى كتاب إتحاف الورى بأخبار أُمّ القُرَى فى حوادث سنة سبع عشرة: فيها جاء سَيْلٌ عظيم ـ يُعْرَف بِسَيْل أُمّ نَهْشَل ـ من أعلى مكة من طريق الرَّدْم، فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام إبراهيم من موضعه وذهب به حتى وُجِدَ بأسْفَل مكة، وغَبى مكانه الذى كان فيه لمّا عَفَاه السيل، فأُتِىَ به ورُبط بلصق الكعبة فى وجهها، وذهب السيلُ بأُمّ نَهْشَل بنت عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

---

(١) فى ل: «حَمْلِى عليكم» ولدى الأزرقى الذى ينقل عنه المصنف: «حلمى عنكم»، والمثبت من «م»، ومثله فى إعلام العلماء، وهو ينقل عن المصنف.

(٢) الأزرقى ٢/٦٩.

ابن قصيّ بن كلاب فماتت فيه، واستخرجت بأسفل مكة[١].

وكان سيلاً هائلاً فكُتِبَ بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو بالمدينة الشريفة فأهاله ذلك، وركب فزعًا مروعًا إلى مكة فدخلها بعُمرة فى شهر رمضان، فلمّا وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو مُلْصَق بالبيت الشريف فتَهَوَّلَ من ذلك ثم قال: أُنشِدُ الله عبدًا عنده علمٌ فى[٢] هذا المقام. فقال المطلب بن أبى وَدَاعة السَّهْمى رضى الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندى علمٌ بذلك، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر فأخذتُ قدرَهُ من موضعه إلى [الركن، من موضعه][٣] باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بِمِقاط، وهى عندى فى البيت، فقال له عمر رضى الله عنه: اجلس عندى وأرسل إليها من يأتى بها، فجلس عنده وأرسل إليها فأتى بها فقيس بها، ووضع حجر المقام فى هذا المحلّ يعنى الذى هو فيه الآن وأحكم ذلك واستمرّ إلى الآن[٤].

قال: وفيها وسّع أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه المسجد الحرام بدُور اشتراها وهدمها وأدخلها المسجد، وذكر ما قدمناه آنفًا[٥].

قال وفيها عمل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه الرَّدْمَ الذى بأعلى مكة صَوْنًا للمسجد، بناه بالضفائر والصخر العظام وكبسه بالتراب، فلم يَعْلُه سَيْلٌ بعد ذلك، غير أنه جاء سيل عظيم فى سنة اثنتين ومائتين فكشف عن بعض أحجاره وشوهدَتْ فيه صخار كثيرة عظيمة لم يُرَ مثلها[٦].

والأقْدمون يسمّون هذا الردم رَدْم بنى جُمَحَ بضمّ الجيم وفتح الميم وبعدها حاء مهملة، وهم بطن من قريش نسبوا إلى جُمَح بن عمرو بن لؤى بن

(١) إتحاف الورى ٢/٧.

(٢) كذا فى م، ومثله فى إتحاف الورى الذى ينقل عنه المصنف. وفى ل: «من».

(٣) من تاريخ مكة للأزرقى ٢/٣٣.

(٤) إتحاف الورى ٢/٧.

(٥) إتحاف الورى ٢/٨.

(٦) إتحاف الورى ٢/٨.

obeikandl.com

غالب بن فِهْر بن مالك.

أقول: المراد بهذا الردم الموضع الذى يقال له الآن: المُدَّعَى، وهو مكان كان يُرَى منه البيتُ الشريف أول ما يُرَى، وكان الناس خصوصًا حين يَرِدُ الحجُّ من ثنيّة كَدًا وهى الحَجُون إذا وصلوا ذلك المحلّ شاهدوا منه البيت الشريف، والدُّعاء مستجابٌ عند رؤية بيت الله تعالى، وكانوا يَقِفُون هنالك للدُّعاء، وأما الآن فقد حالت الأبنية عن رؤية البيت الشريف، ومع ذلك يَقِفُ الناس للدعاء فيه على العادة القديمة، وعن يمينه ويساره ميلان للإشارة إلى أنه المُدَّعَى.

وقال مولانا القاضى جمال الدين محمد أبو البقاء ابن الضياء الحَنَفىُّ فى كتابه البحر العميق فى مناسك الحجّ إلى بيت الله العتيق: إنه كان يُرَى فى زمنه رأسُ الكعبة لا كلُّها من رأس الردم يعنى المدعى، فإذا ظهر له يقف ويدعو ويسأل الله تعالى حوائجه، فإن الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة الشريفة. انتهى.

ونقل حافظ الدين النَّسَفى فى المنافع عن صاحب الهداية رحمهما الله: أنه استوصى عن شيخ له سمّاه فقال له: إذا وصلت سوق كَدًا ورأيتَ الكعبة فادْعُ الله تعالى أن يجعلك مستجاب الدعاء لمن قال إن من رآها أوّلا ودعا كانت دَعوتُه مستجابة. انتهى.

وكان القاضى أبو البقاء بن الضياء المذكور فى أواسط المائة التاسعة وفاته فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة ولا شك أن من عهد الصحابة رضى الله عنهم إلى زمانه كان الناس يقفون ويدعون عنده لمشاهدتهم الكعبة ولا أعلم هل وقف النبى ﷺ فيه أم كان ذلك المحل غير مرتفع فى عهده ﷺ وما رفعه إلا سيدنا عمر رضى الله عنه بالردم الذى بناه فارتفع الأرض وصار البيت الشريف يشاهد منه حينئذ فوقف الناس عنده بعد ذلك لمشاهدة البيت الشريف منه.

وبالجملة فالآن لا يُرَى البيت الشريف منه، ولكنّى أنظر فى جميع عمرى

فى المُدَّعَى يقف فيه فاللائق استمرارُ وقوف الناس بهذا المحلّ الشريف والدعاء فيه تبرُّكًا بوقوف من سلف للدعاء فيه، والله تعالى أعلم.

ولمّا رُدِمَ هذا المكان صار السيل إذا وصل من أعلى مكة لا يَعْلُو هذا المكان، بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال المستقبل البيت الشريف للبناء الذى بناه عمر رضى الله عنه فلا يصل هذا السيل إلى المَسْعَى ولا إلى باب السلام إلى الآن.

وصارت هذه الجهة من يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعة عن ممر السيل، وصار السيل الكبير كلّه ينحدر إلى جهة سوق الليل ويمرُّ بالجانب الجنوبىّ من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة، وهذا السيل سَيْلُ وادى إبراهيم. ويكاد يمنع جريان هذا السيل إلى أسفل مكة سيل آخر يَعْتَرِضه يُسَمَّى سيل إبراهيم يجتمع من الجهات التى فى جنوب مكة ويَنْصَبُّ من محلّة أجياد ويمرُّ عرضًا إلى أن يَصْدِم الركن اليمانى من المسجد وينحرف إلى أسفل مكة، وقوة جريانه تمنع من جريان سيل وادى إبراهيم، فيقف ويتراكم ويدخل المسجد الحرام ويقع مثل هذه السيول بمكة فى كلّ عشرة أعوام تقريبًا مَرةً، فتدخُلُ المسجد الحرام ويحتاج إلى التنظيف وتبديل الحصا ونحو ذلك، وقد عمل المتقدمون والمتأخّرون لذلك طُرُقًا واهتمّوا غاية الاهتمام فاندثرَتْ أعمالُها بطول الزمان ولم تَفْطُن الملوك بعدهم لذلك فاستمرّت السيول العظيمة بعد كلّ مُدَّة تدخل إلى المسجد ولَسْنَا الآن بصدد شرح ذلك.

وأمّا زيادة أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه فى المسجد الحرام فقد ذكرها الإمام أبو زكرياء النَّوَاوى نقلاً عن أبى الوليد الأزرقى والإمام أقضى القضاة الماوَرْدى فى كتابه الأحكام السلطانية وغيرهما من الأئمة المعتمدين رحمهم الله، وفى كلام بعضهم زيادة على بعض، فقالوا: أما المسجد الحرام فكان فِناء حول الكعبة وفَضَاء للطائفين ولم يكن له على عهد النبى ﷺ وأبى بكر رَضى الله جدرٌ يحيط به، وكانت الدور محدقة به وبين الدور أبواب تدخل الناس من كل ناحية، فلمّا استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكثر

الناس وسّع المسجد واشترى دُورًا وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة، وكانت المصابيح توضع عليه، وكان عمر رضى الله عنه أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام، فلما استخلف عثمان رضى الله عنه ابتاع منازل ووسّعه بها أيضًا وبنى المسجد الحرام والأروقة فكان عثمان رضى الله عنه أول من اتخذ للمسجد الأروقة انتهى.

قال الحافظ النجم عمر بن فَهْد فى تاريخه فى حوادث سنة ست وعشرين فيها اعتمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله من المدينة، فأتى [مكة] ليلاً فدخلها وطاف وسَعَى وأمر بتوسيع المسجد الحرام(١). فذكر ما قدمناه.

قال وجدّد أنصاب الحرم، وكلم أهلُ مكة عثمانَ رضى الله عنه أن يحوّل الساحل من الشُّعَيْبَة - وهى ساحل مكة قديمًا فى الجاهلية إلى(٢) ساحلها اليوم، وهى جُدَّةُ لقربها من مكة، فخرج عثمان رضى الله عنه إلى جُدَّة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها، ودخل البحر واغتسل فيه وقال: إنه مبارك وقال لمن معه: ادْخلوا البحر للاغتسال ولا يدخله أحدٌ إلا بمِئزَر، ثم خرج من جُدّة على طريق عُسْفان إلى المدينة، وترك الناسُ ساحل الشُّعَيْبة فى ذلك الزمان(٣).

واستمرَّتْ جُدَّةُ بندرًا إلى الآن لمكّة المشرفة، وهى على مرحلَتَيْن طويلتين من مكة بسير الأثقال تستوعب إحداهما الليل كلّه فى أيام اعتدال الليل والنهار، وتزيد المرحلة الثانية على جميع الليل بشىء قليل، وأمّا الراكب المجد والساعى على قدميه فيقطعهما فى ليلة واحدة، وما رأيت من علمائنا من صرّح بجواز القصر فيها، بل رأيت من أدركتُ من مشايخى الحنفيّة كانوا يكملون الصلاة فيها، وأمّا أنا فأرى لزوم القصر فيها، لأن مُدَّة مسافة القصر عندنا ثلاث مراحل يقطع كلّ مرحلة فى أكثر من نصف النهار من أقصر

(١) إتحاف الورى ٢/ ١٩ وما بين حاصرتين منه.
(٢) فى ل: «فى»، والمثبت من م، ومثله لدى ابن فهد الذى ينقل عنه المصنف.
(٣) إتحاف الورى ٢/ ٢٠.

الأيام بسير الأثقال وهاتان المرحلتان تكونان على هذا الحساب ثلاث مراحل فأزيد.

ثم رأيتُ فى مُوَطَّأ الإمام مالك رضى الله عنه حديثًا صحيحًا يدلُّ على صحّة ما جنحتُ إليه صورَته عن مالك أنه بلغه أن ابن عبّاس كان يَقْصُرُ الصلاة فى مثل ما بين مكة والطائف، وفى مثل ما بين مكة وعسْفان، وفى مثل ما بين مكة وجُدَّة. انتهى.

ثم وقعت زيادةُ سيّدنا عبد الله بن الزُّبَيْر رضى الله عنه وهو صحابى ابن صحابى، أبوه أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، وأمُّه أسماء بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله عنها ذات النطاقَيْن، وخالته عائشة الصديقية[1] أم المؤمنين رضى الله عنها، وُلد بالمدينة الشريفة بعد عشرين شهرًا من هجرة النبى ﷺ، وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة، وفرح المسلمون بولادته فرحًا شديدًا لأن اليهود زعموا أنهم سحروا المسلمين فلا يُولَدُ لهم ولدٌ، وحَنَّكَه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها، وسمّاه عبد الله وكنّاه أبا بكر باسم جدّه الصدّيق رضى الله عنه، وكان صوّامًا قوّامًا طويل الصلاة وَصُولاً للرَّحِم عظيم الشجاعة قويًا، قسم الليالى على ثلاث: فليلة يصلّى قائمًا إلى الصُّبح، وليلة يصلّى ويستمرّ راكعًا إلى الصبح، وليلة يصلى ويستمرّ ساجدًا إلى الصبح، روى عن النبىّ ﷺ ثلاثة وثلاثين حديثًا.

وكان ممّن أَبَى البيعة ليزيد وفرّ إلى مكة وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، ولم يخرج عن طاعته إلاّ أهل مصر والشام، فإنهم بايعوا ليزيد، فلمّا هلك أطاع أهلهما عبد الله بن الزبير، ثم خرج مروان بن الحكم فتغلّب على مصر والشام إلى أن ولى عبد الملك فجهّز جيشًا كثيفًا على ابن الزبير وأمّر عليهم الحجاج بن يوسف الثقفى فحاصره ورمى عليه بالمنجنيق، وخذل ابن الزبير أصحابه فخرج ابن الزبير وَحْده وقاتل قتالاً عظيمًا إلى أن استشهد رضى الله عنه فى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة

(١) فى م: «الصديقة».

وأنشد فيه النَّابِغَةُ الجَعْدىُّ:

حكَيْتَ لنا الصِّـدِّيق لمّا وليتنا وعثمان والفـاروق فارتاح مُعْـدِمُ
وسَوَّيْتَ بين الناس بالحقّ فاستوى وعـاد صباحًا حالك اللون أسْحَمُ

وكان لمّا حاصره الحُصَيْن بن نُمَيْر فى عسكر جهّزه يزيد عليه التَجَأ بالمسجد الحرام فنصب عليه المناجيق وأصاب بعض حجارته الكعبة الشريفة فتهدم بعض جدرانها واحترق بعض أخشابها وكسوتها، وانهزم الحصين بعسكره لهلاك يزيد وبلوغ خبر نَعْيه فرأى عبد الله بن الزبير أن يهدم الكعبة ويحكم بناءها ويبنيها على قواعد إبراهيم عليه السلام لِمَا سمع من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لولا أنّ قومك حديثو عهد بشِرْك لهدمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًّا وزِدْتُ فيها ستة أذرع من الحِجْرِ فإن قريشًا استقصرتها حين بَنَت الكعبة فإن بدا لقومِك من بعدى أن يبنوه فهلمّى لأُرِيك ما تركوه فأَرَاها قريبًا من سبعة أذرع». أخرجه الشّيْخان فى صحيحَيْهما.

وفى رواية عن مسلم عن عطاء، قال: قال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول: إن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن الناس حديثو عهدِهم بكفرٍ وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنْتُ أدخلت فيه من الحَجر خمسة أذرع». انتهى.

فاستشار عبد الله بن الزبير من بقى من الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك فكان منهم من أبَى ومنهم من وافقه على ذلك فصمّم وأقدم على ذلك، ولمّا أراد هدم البيت الشريف ليُجَدّد بناءه خرج أهل مكة من مكة خوفًا، وتلَكّأ العُمَّال عن ذلك فأَرقى عبد الله بن الزبير عبدًا دقيق الساقَيْن وعبيدًا له من الحُبُوش يهدمونها رجاء أن يكون فيهم الحبشىُّ الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السُّوَيْقَتَيْن من الحبشة»(١).

قال الإمام عبد الله بن أَسْعَد اليافعىُّ رحمه الله فى تاريخه مرآة الجنان:

(١) الأزرقى ٢٠٥/١.

أراد عبد الله بن الزبير أن يجعل الطين الذى تُبْنى به الكعبة من الوَرْس، فقيل له: إنه لا يستمسك به البُنيان كما يستمسك بالجصّ، فأرسل إلى صَنْعاء اليمن طلبَ منها جصًا نظيفًا محكمًا فأتوه به فبَنَى به الكعبة، فلمّا أكمل هدمها كشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجد الحِجْر داخلاً فى البيت فبنى البيت على ذلك الأساس وكان أدار سترًا على فناء البيت فكان البُناة يبنون من وراء ذلك الستر والناس يطوفون من خارج، فأدخل الحِجْر فى البيت وألْصق باب الكعبة بالأرض ليدخل الناس منه وفتح لها بابًا غربيًا فى مقابلة هذا الباب، فخرج الناس منه كما كان عليه لمّا جدّدت قريش الكعبة قبل مبعث النبى ﷺ وحضره النبىُّ ﷺ وعُمُرُهُ الشريف يومئذٍ خمس وعشرون سنة.

وكانت النفقة قَصُرَت بقريش لمّا بنوا الكعبة يومئذ فأخرجوا الحِجْر من البيت وجعلوا عليه حائطًا قصيرًا علامة على أنه من الكعبة، فأزال عبد الله ابن الزبير ذلك الموضع، وأعادها على ما كانت عليه زمن الجاهلية وبنى على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وكان طول الكعبة قبل قريش تسعة أذرع وزادت قريش تسعة أذرع، فلمّا : أكمل عبد الله بن الزبير طولها ثمانية عشر ذراعًا رآها عريضة لا طُول لها فزاد فى طولها تسعة أذرع فصار طولها فى السماء سبعة وعشرين ذراعًا، ولمّا فرغ من بنائها طيّبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجًا من أعلاها إلى أسفلها، وكساها الديباج، وبقيت من الحجارة بقية فرشها حول البيت الشريف نحو من عشرة أذرع، وكان فراغه من عمارة البيت الشريف فى سابع عشرى رجب سنة أربع وستين من الهجرة، فخرج إلى التَّنْعيم هو وأهل مكة معتمرين شكرًا لله تعالى وذبح مائة بدنة وذبح كل واحد على قدر سعته، وجعلوا ذلك اليوم عيدًا مشهودًا.

وبقيت هذه العمرة سُنَّة عند أهل مكة إلى اليوم يجتمعون للاعتمار فيه ولا يكادون يتخلّفون عن العمرة فى هذا اليوم فى كلّ عام، ويأتون من البرّ

بقصد هذه العمرة، وكان اعتناء الناس بهذه العمرة قبل الآن أكثر وأعظم من الآن، بحيث يقال: إن صاحب الينبع يومئذ السيِّد قَتادة بن إدريس بن مطاعِن الحسنى جدّ ساداتنا الأشراف ولاة مكة الآن أدام الله تعالى عِزَّهم وسعادتهم لما علم من أمراء مكة يومئذ وهم طائفة أُخرى من بنى حسن يقال لم الهَوَاشم الانْهَماك على اللَّهْو واللَّذَّات وكثرة الظلم من عبيدهم على الناس واستيلاء الغرور عليهم ونفرة القلوب عنهم وعدم توجُّههم إلى أحوال البلد، ارتقب الشريف قتادة اليوم السابع والعشرين من رجب واغتنم الفُرصة لاشتغال أهل مكة بهذه العمرة وخروجهم بتجملاتهم إلى التنعيم فهجم بعبيده وذويه ودخل مكة من أعلاها ومنع ولاتها السابقين من الدخول إليها، وكانت مكة يومئذ مسوّرة ووُلاتها من بنى حسن الهواشم آخرهم الشريف مكثر بن عيسى بن فُلَيْتة ففرّ بمن معه إلى جهات اليمن، وتمكّن السيد قتادة من البلاد وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة واستمرّت الولاية فى ولده إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفى سنة أربع وسبعين من الهجرة كتب الحجّاج إلى عبد الملك بن مروان: يذكر له أن عبد الله بن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها بابًا آخر، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيدها على ما كانت عليه على عهد رسول الله ﷺ، فهدم الحجّاج من جانبها الشامىّ قدر ستة أذرع وشبرًا وبنى ذلك الجدر على أساس قريش وكبس أرضها بالحجارة التى فضلت ورفع الباب الشرقى وسدّ الباب الغربىّ، وترك سائرها لم يغيّر منها شيئًا، فهى الآن جوانبها الثلاثة من بناء عبد الله بن الزبير والجانب الرابع الشامى بناء الحجّاج وهو ظاهر الانفصال عن بناء عبد الله بن الزبير، فلمّا فرغ الحجّاج من ذلك وفد عبد الملك بن مروان وحجّ فى ذلك العام ومعه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومىّ وهو من ثقات الرُّواة، فتحادثنا فى أمر الكعبة فقال عبد الملك: ما أظن أن ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها فى أمر الكعبة، فقال الحارث: أنا سمعت ذلك من

عائشة رضى الله عنها تقول: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا فى بناء البيت ولولا حدثان عهد قومك بالكفر أعدتُ فيه ما تركوا منه وأعدته على ما كان عليه فى زمن إبراهيم عليه السلام فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلُمّى لأُرِيك ما تركوا منه فأراها قريبًا من سبعة أذرع»، وقال عليه السلام: «وجعلتُ لها بابَيْن موضوعَيْن على الأرض بابًا شرقيًا يدخل الناس منه وبابًا غربيًا يخرج الناس منه» فقال عبد الملك: أنت سمعتها تقول ذلك؟ قال: نعم، أنا سمعت هذا منها، قال: فجعل ينكت بقضيب فى يده منكسًا[(١)] ساعة طويلة ثم قال: وددتُ والله أنى تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك.

كذا ذكره النجم عمر بن فَهْد رحمه الله[(٢)].

وقد ذكرنا ذلك جميعه بالاستطراد لاشتماله على الفوائد المهمّة وللحديث شجون.

رجعنا إلى ما نحن بصَدَده وذكر زيادة سيّدنا عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام وسندنا المتقدّم ذكره متَّصلاً مرفوعًا إلى الإمام أبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الأزرقى، قال: حدّثنى جدّى، قال: كان المسجد الحرام مُحَاطًا بجدار قصير غير مسقف، وكان الناس يجلسون حول الكعبة بالغداة والعشى يتتبّعون الأفْياء، فإذا قَلَصَ قامت المجالس[(٣)].

قال: وحدّثنى جدّى، قال: حدثنا عبد الرحمن بن الحسن بن القاسم، عن عقبة، عن أبيه، قال: زاد عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام، فاشترى دُورًا وأدخلها إلى المسجد، وكان ممّا اشترى بعض دارنا - يعنى دار جدّنا الأزْرق - وكانت لاصقة بالمسجد الحرام وبابها شارع على باب بنى شَيْبَة على يسار الداخل إلى المسجد، وكانت دارًا كبيرة إشترى بعضها ببضعة عشر ألف دينار وأدخله المسجد الحرام، وكتب لنا إلى أخيه مُصْعَب بن الزبير

---

(١) فى ل: «منكتا»، والمثبت من م، ومثله لدى ابن فهد الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٠٣.

(٣) الأزرقى ٢/ ٦٩.

بالعراق يدفعها إلينا، قال: فركب رجال منّا إلى العراق فوَجَدُوا مصعبًا يقاتل عبد الملك بن مروان فلم يلبث إلا يسيرًا حتى قُتل مصعبٌ فرجعوا إلى مكة، فصار ابن الزبير يَعِدُنا ويدافعنا حتى جاء الحجّاج بن يوسف وحاصره وقَتل ولم نأخذْ منه شيئًا[١].

قال: وذكر جدّى أنه سمع مشيخة أهل مكة يذكرون أن عبد الله بن الزبير سقف المسجد، غير أنهم لا يدرون أكُلُّه سُقِّفَ أَمْ بعضُهُ، قال: ثم عمّره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه لكنّه رفع جدرانه وسقَّفه بالساج وعمّره عمارة حسنة[٢].

قال: وحدّثنى جدّى، عن سُفْيان بن عُيَيْنة، عن سعيد بن فروة، عن أبيه، قال: كنتُ على عمل المساجد فى زمان عبد الملك بن مروان فأمر أن يجعل فى رأس كل أسطوانة خمسون مثقالاً من الذهب[٣].

قال: وروى جدّى، عن سفيان، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن زاذان بن فروخ، قال: مسجد الكوفة تسعة أجربة، ومسجد مكة سبعة أجربة، وذلك فى زمان عبد الله بن الزبير[٤].

ذكر عمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد الحرام

قال شيخ شيوخنا الحافظ السُّيوطى رحمه الله تعالى: كان الوليد جبَّارًا ظالمًا. أخرج أبو نُعَيم فى الحلية قال: قال عمر بن عبد العزيز: الوليد بالشام، والحجّاج بالعراق، وعثمان بن عُبادة بالحجاز، وقَرْقد بن يزيد بمصر امتلأَتْ الأرض جَوْرًا[٥].

(١) الأزرقى ٢/ ٦٩.
(٢) الأزرقى ٢/ ٧١.
(٣) الأزرقى ٢/ ٧١.
(٤) الأزرقى ٢/ ٧١.
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٢٥٥.

قال الحافظ السيوطى: لكنّه أقام بالجهاد فى أيامه، وفُتحت فى دولته الفتوحات العظيمة[١].

قال الذهبىُّ: عاش الجهاد فى أيّامه، وفتحت فيها الفتوحات العظيمة، كأيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٢].

وقال ابن أبى عَبْلَة[٣]: وأين مثل الوليد! افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق، وكتب بتوسيع المسجد النبوى وبنائه[٤].

قال أبو الوليد الأزرقى: قال جدّى: عمّر الوليد بن عبد الملك المسجد الحرام، ونقض عمل عبد الملك وعمل عملاً مُحْكَمًا، وكان إذا عمل المساجد زخرفها، وهو أوّل من نقل الأساطين الرخام وسقّفه بالساج المزخرف، وجعل على رءوس الأساطين صفائح الذهب وأزر المسجد بالرخام، وجعل للمسجد سُرادقات[٥].

قال النجم عمر بن فَهْد رحمه الله: بعث الوليد بن عبد الملك إلى وَاليه على مكة خالد بن عبد الله القَسْرى بستة وثلاثين ألف دينارًا، فضرب منها على باب[٦] الكعبة صفائح الذهب، وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين التى فى باطنها وعلى الأركان التى فى جوفها، ويقال: إن الحلية التى حلاّها الوليد بن عبد الملك للكعبة هى ما كانت فى مائدة سليمان بن داود من ذهب وفضة، وكانت قد احتُمِلَتْ من طُلَيْطلة من جزيرة الأندلس على بغل قوىّ فتفسّخ تحتها، وكانت بها أطواق من ياقوت وزبرجد[٧]، والله أعلم.

* * *

(١) تاريخ الخلفاء ص٢٥٥.
(٢) تاريخ الإسلام (وفيات ٨١ ـ ١٠٠ هـ) ص٤٩٩.
(٣) تحرف فى الأصلين إلى «عبيدة» وصوابه لدى الذهبى والسيوطى.
(٤) تاريخ الإسلام ص٤٩٨، تاريخ الخلفاء ص٢٥٦.
(٥) الأزرقى ٢/ ٧١.
(٦) فى «ل» (بابى) وفى «م» (باب) ومثله لدى ابن فهد الذى ينقل عنه المصنف.
(٧) إتحاف الورى ٢/ ١١٩.